التجربة الشعرية بين الرؤيا وهاجس التغيير

– نزار قباني اختيارا–

م.د. مها فوّاز خليفة dr. Maha fawaz khlifa

جامعة الأنبار – كلية الآداب University of Anbar - College of Arts

موبايل ٠٧٨١٢٨٨٠٨١١ Maha85@uoanbar.edu.iq

المقدمة

إنّ علاقة التجربة الأدبية بالمجتمع هي علاقة صحية ضرورية لتنويع الانتاج الأدبي وتطوره ولكن ذلك لا يعني اتفاق المتلقين على نفعية هذه التجربة الأدبية او تلك ، حيث تجابه بعض النصوص بالرفض التام من منطلق حماية المجتمع من الأفكار الهدّامة بينما تواجه ذات النصوص اشادة بفاعلية الخطاب الأدبي في تغيير الواقع السيء وما هذا التناقض إلا بسبب تغير مجتمع التلقي وبذا يكون للشعر منطق خاص متطور واقصد بتطور المنطق الخاص للشعر الرؤيا الذاتية للواقع ومحاولة تمثله ضمن التجربة الشعرية سعيا للتغيير واستهداف حياة أفضل للإنسان وفق اجراءات خاصة يقدمها المبدع. تتشظى عن إجراءات الشاعر الابداعية قراءات نقدية متعددة ينطلق بعضها من معايير أخلاقية.

إنّ المقياس الأخلاقي معيار أصيل في نقد الشعر منذ عصر صدر الاسلام، وهذا المعيار النقدي له صوره المبثوثة في كتب الأدب وأول شرارته ما يتناقل عن موقف الاسلام من الشعر بين قائل بمعاداة صريحة وقائل بالتوسط دون الغلو، فكل قول انساني معرض للأخذ والرد الا قول النبي محمد صلى الله عليه وسلم، والحقيقة الماثلة في جلّ الدراسات التي تناولت هذا الموضوع تؤكد ان الاسلام لا يهتم بالفن ودوافعه الا حين يحمل الفن بعدا فكريا فيؤيده حين يكون منسجما مع مبادئه ويرفضه معلنا العداء له حين يخالف تلك المبادئ بمعنى آخر" الاسلام يتبنى النظرة العربية القديمة الى الشعر فيؤمن بفعاليته الاجتماعية ،أي بوظيفته الاجتماعية ،ولكنه يحور في هذه النظرة تحويرا شديدا، أو يغير مضمونها ويربطه ربطا نهائيا بأخلاقياته وقيمه الخاصة المميزة "[١] فصورة المجتمع المثالي او السعي طلبا للمثالية من أساسيات الشعر ها هنا ليحظى بالمقبولية والتشجيع ومعظم النظرات النقدية التي صدرت في عصر الإسلام _عصر الثورة والتغيير_ على لسان النبي محمد صلى الله عليه وسلم أو على لسان أصحابه فيما يتعلق بالشعر والشعراء صادر عن موقف أخلاقي تجاه القيم الإسلامية للمجتمع الجديد والتي حافظ فيها على الكثير من قيم المجتمع الجاهلي قبله، ولكن هل تلقى

جميع الشعراء لاحقا هذه القوانين الصارمة بنفس واحد ؟. بالطبع لا فكل شاعر حدد لنفسه سبيلا لبلوغ غاياته بين تارك للشعر وملتزم بأخلاقيات الإسلام ومنفلت رافض للقيود وهو ديدن النفوس البشرية في التآلف والتخالف ومن هنا انطلقت فكرة البحث القائمة على رصد قراءات متعددة للنص الشعري بين قارئ رافض و قارئ مؤيد وبين متلق داعم لميوله الاصلاحية و آخر يرى فيه هدما لأخلاقيات مجتمعية.

لقد وقع الاختيار على شعر نزار قباني لأن هاجس التغيير في نتاجه الفني نابع من الواقع و منه يستمد عناصر وجوده فضلا عن ما تثيره نصوصه من دهشة بإمكانية قراءة النص الواحد من زوايا مختلفة وهو دائم التصريح بأفكاره الثورية حيث يقول : "لا بد لنا أن نحبّ أو نكره، أن نقبل هذه اللوحة أو نرفض، نبارك هذه القصيدة أو نلعنها، أما الوقوف في منتصف الطريق كأجزاء سيارة مفككة مختبئة وراء قناع موضوعيتنا، فهو إلغاء لإنسانيتنا وحرية اختيارنا وهبوطٌ بنا إلى مستوى الحجارة والطحالب".[٢]

إنّه يشرح بوضوح منهجه في الحياة وأيديولوجيته في محاولة التأثير والتغيّر ويدعونا لإعادة تشكيل تصوراتنا عن الموجودات والأشياء والشخوص، ويضع في حسباننا أن الصمت أو الخضوع للمسلمات هو هبوط بإنسانيتنا كما يرى، حتى أننا نعود كما يزعم أشباه الجمادات والطحالب. وهذه الرؤى تجابه احيانا بالرفض واحيانا بالقبول بين مؤيد ورافض تبعا لمجتمع التلقي

تشظي القراءات

يعد المتلقي عنصرا مهما في العملية الابداعية اشار له النقاد العرب قديما في بحوثهم ضمنيا من خلال مصطلحات " المقام "و "مقتضى الحال " وهذه الاشارات جاءت من جانب ادراكي يتمثل بالإقناع بعيدا عن جانب الامتاع الذي استقطبته الدراسات الأدبية الحديثة [٣]. فيما يعرف بنظرية التلقي التي تستند " الى استجابات المتلقي وردود أفعاله باعتباره عنصرا فعّالا وحيّا يقوم بينه وبين النص الجمالي تواصل وتفاعل فني ينتج عنهما تأثر نفسي ودهشة انفعالية ، ثم تفسير وتأويل وحكم جمالي استنادا الى موضوع جمالي ذي علاقة بالوعي الجمعي "[٤] وقد لاحظنا ان شعر نزار قباني استطاع استقطاب قراء كثر لكل منهم رؤاه الفكرية و ظروفه التاريخية والاجتماعية التي تؤثر في طريقة تأويلهم للأعمال الأدبية و التي تنسجم مع التجربة الشعرية او تنفر منها .

نزار قباني غنيٌّ عن التعريف، شاعر ذائع الصيت، كسب شهرة واسعة، أعانته على بثّ أفكاره وغرس بعض مبادئه في المجتمع، لقد قام بتمرس وشجاعة على أدلجة الشعر، وفرض

على المتلقي بسهولة أسلوبه وجمال منطقه مجموعةً من الأفكار المنظمة والتي شكلت رؤية متماسكة شاملة لكثير من مفاصل الحياة اليومية والنواحي الفكرية والفلسفية.

هذه الفكرة محط اختلاف فقد عدّ الدكتور سعيد ناصر سعيَ نزار للتغير شعوبية، وتنبّه إلى هذا المغزى في شعره وإن اقتصر على موضوع واحد قائلا: "أما نزار قباني فقد تفنن في إبراز الوجه الكالح لشعوبيته، وتنوعت ألفاظ بغضه وهجائه للعرب، من منطلق بُغضٍ أصيل في نفسه، وحقد دفين، وموقف اعتقادي يخدمه ويستخدمه لإيصال رسالته الموكل بحملها من قِبل أساتذته الذين تلقى عنهم متون حواشي لهذه الأمة وتاريخها وحضارتها".[٥]

إن إشارة الدكتور سعيد ناصر للموقف الاعتقادي لا يخلو من وجاهة نظر اذا ما سلمنا بكون الشعر وسيلة للتأثير في المتلقي العربي بعدّه واحدا من أهم رسائل المعرفة والتغيير، فالرسول –عليه أفضل الصلاة والسلام– يقول: "الشعر كلام من كلام العرب، جزلٌ تتكلم به في بواديها وتسلُّ به الضغائنَ من قلوبها"[٦]، إذن فالشعر يملك هذه المقدرة في التغيير ، إذ بإمكان الشاعر المتمكن أن يغيّر الحال وأن يستعطف النفوس ويستجلب الخير، وممكنة جدا قدرته على فعل النقيض لو سار في الاتجاه المعاكس.

ونجد للناقد الحداثي جهاد فاضل كتابا أسماه: فتافيت شاعر، تناول فيه مجموعة نزار الشعرية "قصائد مغضوب عليها" وبيّن أن عددها في الديوان أربع وعشرون قصيدة، وهي في الواقع قصيدة واحدة _كما يرى– ذات موضوع واحد هو هجاء العرب وتدميرهم والحكم بإعدامهم[٧]، وبعد أن ساق جهاد فاضل جملة من أقوال نزار التي تعمل على بث روح الانتقاص والبغض للمجتمع العربي بأفكاره ومبادئه القديمة ذات الثياب البالية كما يدّعي ، قال: "هو يعرض هذه الصورة بشكل هجاء شعوبي مقذع لا مثيل له في عنفه وقسوته، حتى أن تراث الشعوبية القديم لا يتضمن في هجاء المقومات العربية كما تضمنه شعر نزار في ديوانه هذا، ولكن جوهر الحملة القديمة والمستحدثة واحد: هجوم على الصفات العربية المعروفة من كرم وصرف ونحو وأدب، وهجوم على إنسانية الإنسان العربي وكونها بالفطرة غير قابلة للعلاج والشفاء، وهو لا يقدم بالطبع أيَّ حلٍ؛ لأنه لا يحسب حسابا للحلول، فذهنه وعقله منصرفان للتدمير لا لسواه".[٨]

لقد اشترك الناقدان جهاد فاضل و د. سعيد ناصر في الاشارة إلى بعض هذه الأقوال التي تهجّم فيها الشاعر على العرب ولغتهم حيث قال:

"أنعى لكم يا أصدقائيْ، اللغةَ القديمةْ

والكتبَ القديمةْ

أنعى لكمْ

كلامَنا المثقوب كالأحذيةِ القديمةْ

ومفرداتِ القهرِ والهجاءِ والشتيمةْ

أنعى لكم، أنعى لكم

نهايةَ الفكرِ الذي قادَ إلى الهزيمةْ"[٩]

علق د. سعيد على هذا النص قائلا: "لا يدري العاقل مما يعجب، أمِنْ هجومه على اللغة والتراث الذي يرمز له باللغة القديمة! أم من الألفاظ البذيئة التي يلصقها بلغة العرب والتي هي من نتاج فكره السوقي! لا ضير عنده مادام هذا كله يقود إلى طموحه الشعوبي في إبادة كل فضل للعرب".[١٠] ويبدو أن منطلق د. سعيد من دراسته للنص الوقوف عند التصريح دون الغوص في عمق النص وبيان ماهيته، فالنص يخفي في أعماقه دلالات من الصعب أن تتعرى للقارئ دون الغوص في المعاني التي تقف خلف هذا اللفظ المباشر فهذه الابيات وصف بها حنقه على الواقع السيء الذي يعيشه المجتمع العربي إبان نكسة حزيران ١٩٦٧. وما هذا التشظي في استقبال التجربة الأدبية إلا دليل على تعدد القراءات من زاوية نفعية المجتمع بين تقبل النقد لبناء المجتمع وتغييره أو عدّه وسيلة لهدمه .

ان ما استوقفني في هذا النص، ليس ما أشار إليه الباحث سابقا، فهو يتناول شعوبية نزار وغضّه من مكانة العرب وشتمه لهم، ويحاول أن يؤكدها وينبّه عليها، فالوقوف عند العبارة الأخيرة هو الاهم عندي :

"أنعى لكم، أنعى لكم

نهاية الفكر الذي قاد إلى الهزيمة"

حيث يدرك القارئ دون عناء أنه يضمن الشعر رؤيا ثورية ويسعى من خلاله إلى التغيير، ويَعدّ وصوله إلى ما وصل إليه نتاجا يستحق الفخر، فقد استطاع أن يوصل فكره وصوته لمئات الألوف من العرب، في الأمسيات الشعرية، وعلى أشرطة الفيديو، وكان هذا ردّه على من ادّعى شعوبيته، بل أن العرب صفّقوا له ووجدوه صمام الأمان لأحزانهم ومرارتهم وانفجاراتهم الداخلية.[١١]

لقد استطاع الشاعر أن يجعل لنفسه منبرا يبثُّ منه أفكاره وتقاليده الخاصة ومعانيه المبطنة متعاملا مع الشعر الاجتماعي بأنماطه المتعددة (التقريري او الرمزي أو الثوري)، و استطاع بقوة أن يؤثر، وأن يجعل خطاه ثابتة نحو التغيير فهو يقول:

"فأنا أتعاطى الشعر ولا أتعاطى سيدتي التفكير"[١٢]

لقد كان صريحا لدرجة أنه نبهنا إلى معانيه، إلى مقاصده وغاياته، وان كنا نرى أنّه لم يسلك الطريق الواضح ولم يقف خطيبا ولم يكن باحثا، هو ببساطة كان شاعرا سلك سبلا أخرى للوصول إلى عقول المتلقين دون أن يستفزّ عواطفهم تجاه لغتهم ومبادئهم، لقد ادرك نزار أنّ اللغة وعاء الفكر فاخذ يفتش ويمحص في اختيار الالفاظ وتناسق المعاني التي تعلق بذهن القارئ المعاصر وتذهب به سبل التأويل المختلفة، فالمهم هو التفكير الذي يرتهن اللغة لتعبر عن فلسفته و رؤاه :

"هذا عصرُ العنفِ
وعصرُ الجنسِ
وعصرُ الدهشةِ والتغييرْ
فلنهربْ من سيفِ السيّافِ
وقصةِ عنترة و الزيرْ
لا وقتَ لدينا للتأريخ
فنصفُ حوادثُه تزويرْ
من جسمك تنطلقُ الغزوات
ومنه سيبتدئُ التحريرْ"

ان عملية تأويلية لهذا النص تكشف رفض الانكفاء على الماضي واستدعاء الشخصيات التاريخية ودعوة التعايش مع حركة الكفاح التي يعيشها المجتمع العربي لإثبات الذات والبدء برحلة جديدة يتحرر فيها التفكير ويواكب (الأنا)الحاضر لا (الهو) الغائب فهو يبعث شفرات للقارئ تخبره عن نفعية العمل الحاضر وترك البكاء على الاطلال وهذا عكس ما يشير اليه ظاهر النص فالأفكار التي تلبست رؤى الشاعر تكمن قدرتها بالإحاطة بالحقائق الاجتماعية وصياغتها صياغة جديدة بأسلوب آخر وبصورة تحقق ذات الشاعر في تغيير الواقع السلبي في نظره، وهذا التجديد عنصر مهم في تواصل الابداع مع اختلافنا في الانقياد للتجديد بين ما يتلاءم مع التقاليد الأدبية والمجتمعية .

إنّ الذين وقفوا ضد نزار انطلقوا من منظار ايدلوجيا ديني دون النظر الى الجانب الأدبي ولعل استنطاق النصوص من وجهة نظر عقائدية أنفع للمجتمع في الحفاظ على قيمه وتقاليده من استنطاق شعرية بعض النصوص و لا تعارض من تضافر الاخلاق واللغة فذلك من أعلى مراتب البيان وهو معيار نقدي أصيل في التراث العربي اذ لا يحاسب الشاعر على دينه ولكن يحدد ضمن اطار مجتمعه ولا أدل على ذلك مما ينقله الرواة عن عمر بن عبد العزيز أنّه

قال:(إنّ الاخطل ضيّق عليه كفره القول وإن جريرا وسّع عليه إسلامه قوله)[١٣] فنصرانية الأخطل قيدت رسائله المبثوثة في ظل تسيد الاسلام والتزام المجتمع بمعاييره العامة وبذا يصح أن يكون المقياس الديني للشعر ذا نفعية مجتمعية لا تقل أثرا عن النفعية الأدبية .

وسائل التأثير

أولا: الرمز

جعل الشاعر من الرمز آلية لترويج بعض الأفكار بصورة خفية أو مبطنة لقد اتخذ نزار من المرأة مثلا رمزا ومنبرا لبث أفكاره وهي سبيله لرفض الواقع ومحاولة تغييره ، وكان جسد المرأة رمزا لجسد الامة(انني أكتب عن المرأة وعن القضية العربية وأقاتل من أجل تحرير المرأة من رسوبات العصر الجاهلي كما أقاتل من أجل تحرير الأرض من حوافر الخيل الاسرائيلية)[١٤]

ما تغنى به من مفاتن ماهي إلا معادل موضوعي وقد ألحّ على هذا الرمز لأسباب كثيرة لعل أهمها فاعلية التداعي بالصور والذي كان يهدف إليه، إلا إنه يجعله ضبابيا نوعا ما، أو أنه يبدو المعنى الهامشي غير المقصود لدى الشاعر في نظر القارئ، و وقد يكون هو في الحقيقة المعنى الذي يرمي إليه الشاعر ، وإلا فما المغزى من أن يكون ديوان شعر أو مجموعات شعرية لا تصف إلا جسد المرأة أو موضعا من جسدها ؟

هو يستقطب فئة عمرية معينة أو جماعة فكرية محددة، ويسعى لكلا الأمرين، الفئة العمرية؛ لأنها الفئة الأهم في المجتمع، فهي القادرة على التغيير والتي بإمكانها أن تغيّر الواقع نحو عوالم وثقافات وتقاليد أخرى يزرعها في القادم من الأجيال:

"أكتبُ للصغارْ

للعربِ الصغار حيث يوجدون

لهمْ، على اختلافِ اللونِ .. والأعمار.. والعيونْ

أكتبُ للذين سوفَ يُوْلَدونْ

لهم أنا أكتبُ .. للصغارْ

لأعينٍ يركض في أحداقِها النهارْ"[١٥]

وهي مقدمة لقصيدة قد تكون من أكثر قصائده التزاما أخلاقيا تجاه الوطن والحرب ضد اليهود، ففيها يصدق حين يقرر خطابه ونوعية المخاطبين. يقول في إحدى قصائده:

"كان نهداكِ.. في العصورِ الخوالي

ينشدان السلام مثل الحمامةْ

كيف ما بين ليلةٍ وضحاها

صار نهداكِ.. مثل يوم القيامةْ"[١٦]

فرمزية النص تأخذنا لحوار مع الأمة العربية في ماضيها التليد وتعجب مما آل إليه حاضرها في محاولة لرفع الهمة واستلهام الرغبة للتصدر مرة أخرى .

إن الانطلاقة كانت من التشبيه ثم آل الحديث إلى مباحات للشاعر في بنيتين فوقية وتحتية ، هذه التي اعترف الشاعر صراحة أن الكلمة تغويها وترفع منها وتدنيها اقصد المرأة فـ " المفتاح إلى قلب الحبيبة –كل حبيبةٍ...المفتاح أغنية حبٍّ جميلة تُغنّى تحت شُرفتها...الشعر هو كلمة السر. من عرف متى يقولها وكيف يقولها استطاع أن يزحزح الصخرة المسحورة ويصل إلى صناديق اللؤلؤ والمرجان، إلى الحور المقصورات في الجنان"[١٧]، فالمرأة ليست هي الغاية لكنها مفتاح لعوالم أخرى أبعد وأرحب بما تضيفه حولها من ظلال وما تبعثه من معان هامشية مشحونة بالإيحاءات.

الآليات البلاغية

اقصد بها نمط معين من العلائق المتمازجة بين الاساليب البلاغية التي لها أثر واضح في العملية التأثيرية "فالأدب مؤسسة اجتماعية أداته اللغة وهي من خلق المجتمع ،والوسائل الأدبية التقليدية..... اجتماعية في تصميم طبيعتها. إنها أعراف وأصول لا يمكن أن تبزغ إلا في المجتمع "[١٨]وهذه الأساليب مطواعة قابلة لاحتواء الفكر والتأثير بين التشبيه والكناية والاستعارة وسواها ولإيضاح الفكرة نتمثل بقول الشاعر:

"لا يعرفُ الطوفان في جرفهِ

ما حلَّلَ اللهُ وما حرَّمَهْ"[١٩]

فهو يكنّي هنا عن الانكسار الجسدي والأخلاقي فلا يحق للإنسان أن يصبح غريزيا مندفعا وراء رغباته دون رادع وإلّا ستكون العواقب وخيمة.

ويُكنّي عن الذنوب المتراكمة التي يرتكبها الإنسان حتى يصل إلى مرحلة اللاعودة في ظنه واعتقاده، فيكون صدى الابيات في ذهن العاقل (لا تستلم قم وقاوم) و ذلك في قوله:

"إنها الخمسونَ ماذا بعدها؟

غيرُ أمطارِ الشتاءِ المحزنِ

إنها الخمسونَ ماذا ظلَّ لي

غيرُ هذا الوحْلِ.. هذا العَفنِ

..

غيرُ ربٍّ كنتُ لا أعرفهُ

وأراهُ الآنَ لا يعرفُنيْ"[٢٠]

ومن مباحث البلاغة الحجاج الذي يهدف إلى " بحث سبل التأثير على اشخاص المتلقين، و يجب ألا يظن أنّ موضوعه يتصل بعلم النفس التجريبي ، أو ما يمكن أن يكون (اختبارات) على فئات من الناس ....فالحجاج مختلف عن ذلك ، إذ هو لا يحصر همه في المشكلات النفسية ، والاجتماعية ، أو السياسية التي تحللها العلوم التجريبية ، وانّما هو يهتم ببنية القول : أو لنقل أن الحجاج كما اقترح بريلمان ذلك ، يهتم بأدوات الاستدلال في العلوم الانسانية " [٢١] نلحظ ذلك في القصيدة الآتية حيث يصل إلى فكرة أنّ المجتمع العربي مجتمع ظالم يدافع عن الزاني ويرجم الزانية، فيدافع عنها قائلا:

"مَنْ أنا؟ إحدى خطاياكم أنا

نعجةٌ في دمِكُمْ تُغْتسَلُ

أشتهي الأسرةَ والطفلَ وأنْ

يحتويني مثل غيري منزلُ

ارجموني سَدِّدوا أحجاركم

كلُّكم يومَ سقوطي بَطَلُ

يا قُضاتي.. يا رُماتي.. إنكمْ

إنكم أجبنُ من أن تَعدلوا

لن تخيفوني ففي شرعتكم

يُنصرُ الباغي.. ويُرمى الاعزَلُ

تُسأل الأنثى إذا تزني وكم

مجرمٍ دامي الزنا.. لا يُسأل

وسريرٌ واحد ضمّهما

تسقطُ البنتٌ.. ويُحمى الرجلُ"[٢٢]

حوار متسلسل مقنع، وإمكانية التأثير عالية، إذ بدأت الباغية بسؤال: مَنْ أنا؟ لتتمكن من عرض قضيتها وتفاصيل حياتها، وانتقلت عبر ذلك لوصف مشاعرها الإنسانية، وأتبعته بأمر

الرجم والتهكم بهم لأنهم قادرون على رجمها كالأبطال، ثم أردفت بالنداء ثم الوصف، فالقضاة الرماة جبناء غير قادرين على العدل، ثم نفت عن نفسها الخوف، فهي الشجاعة ساعة الحزم، الواقفة في وجه الظالم محاجِجَةً مقررةً منددةً قائلةً: (تسقطُ البنتُ ويُحمى الرجلُ)، هذا تسلسلٌ بديع ببساطة الأداء، ولكن ما تحمله من فكر أعمق مما يبدو عليه النص ظاهريا .

ثالثا: التناص

لا يخفى على قارئ ديوان نزار الثراء المعرفي والموروث الثقافي الذي نهل منه واستعان به ليحقق ما يصبو إليه من تأثير ، وهو مهمته الأهم فـ"مهمة الشاعر عند نزار أن يفتّتَ كل الأشياء والافكار والقناعات والاوهام التي أخذت شكل الحجر، مهمته أيضا أن يفتّتَ اللغة التي أخذت شكل الصخرة الصماء".[٢٣]

لقد استطاع نزار أن يوظف التناص ليكون سلاحا له في هذه المعركة الفكرية، وقد شكَّل التناص لديه كل ما من شأنه أن يبث الأفكار بصورة مقنعة مشفوعة بالأدلة ، ومما أثار إعجابي قول الدكتور مصطفى صالح علي في بحث منشور بعنوان: التناص القرآني في شعر نزار قباني: "تلتقي في النص الشعري عدّة ثقافات تتحاور مع بعضها بفضل الصياغة الشعرية، منها الثقافة الدينية ولا سيما القرآن الكريم الذي لا يمكن لأي شاعر فطِن الاستغناء عنه في تعزيز نصوصه بالأدلة الصادقة والصياغة البيانية المعجزة، سواء كان ذلك بوجه صريح أو خفي على وفق دلالات معينة"[٢٤]

فقوله: "لا يمكن لأي شاعر فطِن الاستغناء عنه" هو بيت القصيد الذي أتحدثُ عنه، فنزار قباني حاول أن يؤدلج الشعر واتخذ من التناص سبيلا له لا لتعزيز نصوصه بالأدلة الصادقة أو الصياغة البيانية المعجزة كما يقول الدكتور مصطفى صالح، بل ليحيل بعض النصوص في ذهن المتلقي لمزيج من التناقض وعدم وضوح الرؤية أو إلى الإساءة المتعمدة عندما يوظف النص توظيفا إنكاريا أو يحيل إليه طريقةٍ ما فيثار في المتلقي روح البحث والاستقصاء لمعرفة الحقيقة وهو بذلك يقدم منفعة عظيمة في رفع المستوى الثقافي لدى القراء مما يترك أثرا جليا في تفتح المجتمع على ثقافات متعددة. ، وإن كان الباحث قد أشار صراحة إلى عدم الدفع إلى منطق الأحكام التشريعية وبحث في فنيّة التناص.

إنّ التناص لدى نزار قباني يأخذ بعدا آخر لا أجده تناصا سطحيا قائما على الإحالة الفردية لنص بعينه على الرغم من أنه يفعل ذلك أيضا، إلا إن هذا التناص المخفي هو الأكثر نفعا في تضمين الشعر الرؤى وبث الأفكار بسلاسة،

في ديوان نزار من التناص غير المباشر الخفي ذي الأغراض والسبل ما يمكّن الجاد من كتابة بحث مفصّل عنه للكشف عن أساليبه الإقناعية الثورية

"أريد البحث عن وطنٍ
جديدٍ غير مسكونِ
ورَبٍّ لا يطاردنيْ
وأرضٍ لا تعاديني
أريدُ أفرُّ من شرقِ الخرافة والثعابينِ
من الخلفاء والأمراءِ
من كلِّ السلاطينِ
أريدُ أحب مثل طيورِ تشرينِ
أيا شرفَ المشانقِ والسكاكينِ"[٢٥]

رابعا: الشخصيات:

في إطار الأفكار كان لا بد لنزار أن يصنع لنفسه سبلا تؤدي لبث العدد الأكبر من الأفكار، ولا يمكن في أي حال من الأحوال أن يجمع كل هذه الأدلجة تحت ردائه وفي شخصيته فحسب، لذا كنّا نطالع تعدد الشخصيات في ديوانه، ولكل شخصية دور معين حيث أنّ " توظيف الشخصية في الشعر المعاصر لا يسير على نمط واحد ..بل تتعدد الاطر وتتنوع الرؤى والمضامين ، وربما تباينت رؤى الشعراء في توظيفهم لشخصية واحدة، وربما جمع النص الواحد حشدا من الشخصيات والمواقف والأحداث "[٢٦] وإن كانت الأفكار شبه موحّدة وهي:

أ: احتقار العرب: وقد مرَّ بنا الحديث عن هذه الفكرة وكيف أدلجها الشاعر وصاغها شعرا مؤثرا، ولا بأس من ذكر بعض النصوص فهو يقول مثلا:

"ثوري على شرق السبايا والتكايا والبخور
ثوري على التاريخ وانتصري على الوهم الكبير
ثوري على شرقٍ يراك وليمةً فوق السرير"[٢٧]

فهو هنا ينسب للعرب السبايا والتكايا والبخور حتى ليحس القارئ من خلال التركيب الإضافي أن ليس للشرق من مزايا سوى ما ذكر من بخور وسبايا وتكايا وهو ها هنا يلقن بنفسه

شخصية القصيدة ما عليها أن تفعله، وهي المرأة الحاضرة في ذهنه دوما وهذا الازدراء لمثل هذه الصفات مما يساعد على تجاوزها في المجتمع بالتنبيه والتقريع والإلحاح.

ب : رفض التقاليد: لا أبالغ حين أقول أن لكل زمان فجوة يَعْبر من خلالها المنظرون وأصحاب الرؤى والأفكار ليخزوا جسد الأمة أو ليسلطوا الضوء على ما فيها من فجوات، ولا أبالغ أيضا حين أقول أن نزار قباني لا يمكن أن يقف في المنتصف على الأقل من عيون متلقيه، فإما أن تجد قارئا قادحا أو مادحا، أما أن تجده محايدا، هو ما لم أعثر عليه وإن كنت أحاول جاهدة أن أكون ذلك القارئ المنصف، تقول د. سعاد الصباح وهي تمجّد ثورة نزار ضد الأعراف والتقاليد: "لايزال نزار قباني يعمر جمهوريته الشعرية على امتداد الوطن العربي منذ خمسين عاما حتى صارت جمهوريته أشهر من جمهورية افلاطون لم يترك بيتا لم يدخله ولم يترك طفلا لم يلعب معه ولم يترك حديقة لم يجلس تحت أشجارها ولم يترك عاشقا إلا احتضنه ولا عاشقة إلا أهداها ديوانا من شعره وعلّمها كيف تكتشف الأنوثة، وتستمر قائلة:

نزار قباني هو الشاعر المبثوث على كل الموجات في سماوات الوطن العربي، وكيف لا وهو القائل:

"بمن أهتمُّ.. هل شيءٌ
بنفسي –بعدُ– ما دُمِّرْ
أبالعفنِ الذي حولي
أم القيمَ التي أنكرْ"[٢٨]

ويعد الخضوع للعرف والتقاليد قتل وموت حتى يصف النساء بأنهن:

"دفنَّ بغير أسماءٍ بمقبرة التقاليدِ"[٢٩]

ج: الوجودية: واحدة من أهم مبادئ الشاعر الساعي لنشرها، والذي عاش ملتزما بها وأدلج لها من خلال مسيرته الشعرية بسبل شتّى فهو يرى أن السعي وراء الدنيا هو الأهم وهو الهدف الذي يستحق أن يُعاش لأجله الا ان الوجودية التي يسعى لها غير الوجودية التي يسميها (اللامنتمي) فهي وجودية في اطار التمتع بمباهج الحياة ونفض غبار اليأس والخنوع عن النفوس المتعبة ، إذ يقول:

"أريدُ أريدُ أن أحيا
بكلِّ خليّة مني
مفاتنَ هذه الدنيا

...

أريد أريد أن أحيا

بكل حرارة الواقع

بكل حماقة الواقع"[٣٠]

هنا يسعى لتمجيد ذاته فهو مختلف، وهذا ما يصر عليه في تمجيد الشاعر وتجميل صورته فيقول:

"ولست نبيا مرسلا غير أنني

أصير نبيّا عندما عنك أكتبُ"[٣١]

إن الحديث عن سبل الأدلجة الشعرية_ واقصد بها بث الافكار والرؤى في الشعر ليكون سبيلا للتغيير _هذه السبل في ديوان نزار أو مجموعاته تحتاج بحثا مطوّلا، ولعلّ مفردة حقل (النبوة) الدلالي سيفتح للباحثين أبوابا مشرعة في الحديث عن هذه المهمة، إذ إن النبي بإمكانه أن يغيّر الفكر وأن يسعى بما أوتي من قوة لفتح نوافذ التغيير وهدم سقوف التقاليد واقتلاع جذور الرواسخ من الأفكار وذلك بإسناد إلهي، لذا كثيرا وكثيرا ما صادفتني في ديوانه هذه المفردات ومنها قوله:

"يُفاجئني الحبُّ مثل النبوءة حين أنام

ويرسم فوق جبيني

هلالا مضيئا وزوج حمام

يقول تكلّم"

ويقول في موطن آخر:

"تعتريني حالة نادرة

بين الوحي والإسراء

بين الكشف والإيماء"

وهو يمزج بين فكرة كونه شاعرا واستلزام هذه الشاعرية لإثبات الوجود والدفاع عن الحرية حين يقول:

"أناْ هاربٌ من كلِّ إرهاب يمارسهُ جدودكِ

أو جدو

فأنا أحبّكِ كي أدافعَ عن وجودي"[٣٢]

وليست مصادفة –كما أعتقد– أن يمحو الشاعر نصف كلمة (جدودي)، فلم يكن الوزن هو المانع، إذ من الممكن جدا إضافة الحرفين ولا ينكسر الوزن وتكون هذه الإضافة من علل الترفيل –إضافة سبب على ما آخره وتد– التي تضاف إلى تفعيلة الكامل مُتَفَاْعِلُنْ، وحينئذ تبدو قصدية نزار واضحة من عدم اعترافه بجدوده، فله من الوجود الذاتي ما يجعله مستغنيا عن إثبات جدوده، ثم يعود قائلا في موضع آخر:

"أنا القاضي بأمر اللهِ
والناهي بأمر اللهِ
فامتثلي لأحكامي
فحبي دائما عادلْ"[٣٣]

نلاحظ في هذه الأبيات دخول (ال التعريف) في كلمة القاضي والناهي والتي أعطت المعنى بعدا آخر عمّا لو قال: قاضٍ وناهٍ بلا تعريف فالوجودية التي ينشدها لا تتعارض مع أوامر الله .

خامسا: الأسئلة: في أعلى مستويات النقاش تتسيد الأسئلة وذلك لأنها تعمل على وضع ردود مناسبة للفكر والمنطق في حدود ثقافة المتلقي فضلا عن امكانية استدعاء المعاني الغائبة التي من أهم مميزات السؤال فهو يعمل على تجديد المعاني وتوليدها فيغدو النص أغنى بالإيحاء والانزياح، ومع كل تحليل جديد وعملية قراءة تتجدد بنية السؤال وتتضاعف وتتجه الى جهات اكثر وتتخذ معانٍ أكثر[٣٤]، وكثيرا ما تكون المناظرات العلمية عبارة عن أسئلة وردود الا أن التجربة الشعرية تعمل على انفتاح الدلالات وتعددها ، وقد عمد الشاعر هنا إلى هذا الاسلوب حتى صار واحدا من أهم أساليبه الإقناعية في عرض الأفكار، فهو يسأل بمنطقية عن أمور ليس لها من إجابات منطقية ليفتح ابواب التفكير لرياح التغيير على مصراعيها أمام المتلقي ليقرر بنفسه ما يريد، حيث يقول :

"لا تسألي: مِن أينَ جئتُ، وكيف جئتُ، وما أريدْ
تلك السؤالات السخيفةُ ما لديَّ لها ردودْ"[٣٥]

وكذلك قوله:

"لماذا نحن مُزْدَوِجونَ
إحساسا وتفكيرا

لماذا نحن أرضيّونَ

تحتيّونَ

نخشى الشمس والنورا"[٣٦]

هو يحاول أن يبث أفكاره لزعزعة التمييز العنصري او العقدي من الأفكار والثوابت العرفية فيقول مثلا على لسان سيدة مسيحية:

"أيا ربي

متى نشفى هنا

من عقدةِ الدينِ

أليسَ الدينُ كلُّ الدينِ

إنسانا يُحيّيْني"[٣٧]

السؤال في صيغته يحمل بعدا آخرا ولا سيما إضافة لفظة (هنا) للدلالة على الشرق بعقده كما يرى الشاعر، فضلا عن البدل في قوله: كل الدين، وإن كان معاملةً، فهو قبل ذلك التزام بمبادئ وأسس وأركان.

ونجده أحيانا يسأل:

"لماذا لا يكون الحبّ مثل الخبز والخمرِ؟

لماذا لا يكون الحب في بلدي

ضروريا

كديوانٍ من الشعرِ"[٣٨]

وفي مكان آخر نجده متسائلا:

"أفكّرُ أيّنا أسعدْ؟

أنا أم قطّنا الأسود

أنا؟؟

أم ذلك الممدود.. سلطانا على المقعد؟"[٣٩]

في نهاية المطاف أقول: لا بد للباحث أن يقف مليّا أمام دواوين الشعر العربي، لا ليحرق ما فيها من مخالفات، ولكن ليتنبّه لها ويُنبّه وليشير إلى مواطن الشبهة، كما يشير دائما إلى مواطن الجمال، وخير من يعبّر عن رؤى شعر نزار هو نزار نفسه:

"حروفي سفيراتي مرايا خواطري
وأطيبُ طيبٍ في زوايا المخادعِ
وأجملُ ما عنّيتُ ما طرَّزتْ يدٌ
وأكرمُ ما أعطتْ أنامِلُ صانعِ
بأعصابِ أعصابي رسمتُ حروفها
وأطعمتها مِن صحّتي، مِنْ مدامعي
وأنفقتُ أيامي أصوغُ سطورها
بدقّة مثّالٍ وأشواقِ راكعِ"[٤٠]

الخاتمة

تبنى البحث نظرية فعالية الشعر الاجتماعية وكونه يتأثر بمعطيات الواقع مما يولد هاجس التغيير لدى المبدع، فالعوامل الخارجية لاسيما العوامل الاجتماعية التي هي في الواقع عوامل اقتصادية وسياسية وثقافية وتاريخية في الوقت ذاته تؤثر كثيرا في تشكيل النصوص الأدبية، فالصلة بين الأدب وما يحيط به من تأثيرات اجتماعية ودينية وظروف بيئية وغيرها من الاحوال مما لا يمكن انكاره او الاعراض عنه فكل تجربة فنية هي نتاج فرد يمثل عضوا من المجتمع وكذلك تندمج تجاربه الفنية في وسط اجتماعي له رؤاه فيجد في التجربة الفنية تعبيرا عن الزمن الذي هو فيه ومن أهم نتائج البحث ما يأتي:

١- الأدب في أحد أهم توجهاته يمثل قيمة اجتماعية و ينقل وقائع التجارب الانسانية الصحيحة والخاطئة رمزا وتقريرا وثورة .

٢- عرض اخفاق الواقع في تحقيق الرؤى المنشودة في الأدب لا يمثل اخفاقا للأدب نفسه .

٣- يجب ان نتأنى قبل أن نتخذ حكما قاطعا تجاه نزار وشعوبيته وذلك بتبيين الأسباب والدوافع ومنها قصدية المبدع علما أنّ اللغة العربية أداته في التفكير وبث ما يروم ايصاله للمتلقي فكيف يتنكر لها.

٤- إنّ القراءة السطحية لا توصل الى نوايا الشاعر وحقيقته فلكل شاعر عالمه الخاص وأيدولوجيته وهو لا يحكم نفسه بالتفكير الجمعي دائما فله ذاتيته.

٥- لا يسعى الشاعر دائما لإرضاء القارئ بقدر سعيه الى التنفيس عمّا يجول في خاطره.

٦- إنّ الشاعر لم يدخر جهدا لتغير الواقع المرير ولهذا حظي باهتمام المجتمع العربي.

٧- تعدد القراءات حالة صحية في ظل تعدد المدخلات الفكرية والتوجهات النقدية .

الهوامش:

[١] – بنية القصيدة العربية حتى نهاية العصر الاموي د.وهب رومية ،دار سعد الدين ،دمشق،١٩٩٧: ٢٠٥

[٢] – الأعمال الشعرية الكاملة ، نزار قباني، منشورات نزار قباني، بيروت، لبنان: : ٣/ ٤٨٣

[٣] – ينظر البلاغة والاسلوبية ،محمد عبد المطلب، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٤: ١٧٢

[٤] – النص وتفاعل المتلقي في الخطاب الأدبي عند المعري ، حميد سمير ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، ٢٠٠٥ : ١٤ .

[٥] – الانحراف العقدي في أدب الحداثة وفكرها دراسة نقدية شرعية، د. سعيد بن ناصر الغامدي، دار الاندلس الخضراء ، جدّة، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٣ : ٢/ ٧٣٥

[٦] – العمدة في محاسن الشعر وآدابه: ٢٨

[٧] – ينظر: الأعمال السياسية الكاملة، نزار قباني، منشورات نزار قبّاني، بيروت، الطبعة الخامسة ، ١٩٨٣: ٣/ ٣٩٨

[٨] – فتافيت شاعر: ١٩

[٩] – الأعمال السياسية الكاملة: ٣/ ٧١

[١٠] – الانحراف العقدي: ٢/ ٧٣٦

[١١] – ينظر: فتافيت شاعر: ٥١

[١٢] – نزار قباني: الأعمال الشعرية الكاملة: ٢/ ٤٤

[١٣] – الاغاني علي بن الحسين بن محمد القرشي الاصفهاني (٣٥٦)،تحقيق إبراهيم الابياري،طبعة دار الشعب ،١٩٦٩: ٨/٣٠٥٢.

[١٤] الاعمال الشعرية والنثرية الكاملة ،نزار قباني منشورات مهديس ط(١): ٦٧١

[١٥] – نزار قباني: الأعمال الشعرية الكاملة: ١/ ٣٥٧

[١٦] – نزار قباني: الأعمال الشعرية الكاملة: ١/ ٧٦٩

[١٧] – الأعمال الشعرية والنثرية الكاملة: ٧/ ٤٩٤

[١٨] – في نظرية الأدب، د.شكري عزيز ماضي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الاولى، ٢٠٠٥ : ١٣٤

[١٩] – نزار قباني: الأعمال الشعرية الكاملة: ١/ ٧٧

[٢٠] – نزار قباني: الأعمال الشعرية الكاملة: ١/ ٨٤

[٢١] بلاغة الخطاب وعلم النص ، صلاح فضل عالم المعرفة الكويت ،١٩٩٢ :٧٥-٧٦

[٢٢] – نزار قباني: الأعمال الشعرية الكاملة: ١/ ٨٦

[٢٣] – أسرار القصائد الممنوعة لشاعر الحب والحرية نزار قباني قصائد خلف الأسوار: محمد رضوان، دار الكتاب العربي، ط١، ٢٠٠٤: ١٠

[٢٤] – التناص القرآني في شعر نزار قباني، د.مصطفى صالح علي، كلية الآداب–جامعة الأنبار، مجلة جامعة تكريت للعلوم، المجلد: ١٩، العدد: ٧، تموز ٢٠١٢: ٢٣٥

[٢٥] – نزار قباني: الأعمال الشعرية الكاملة : ١/ ٥٩٦– ٥٩٧

[٢٦] – الأدب الاسلامي بين النظرية والتطبيق، د. صابر عبد الدايم، دار الشروق، الطبعة الاولى، ٢٠٠٢: ٩٦

[٢٧] – نزار قباني: الأعمال الشعرية الكاملة: ١/ ٥٧٣

[٢٨] – نزار قباني: الأعمال الشعرية الكاملة: ١/ ٦١٦

[٢٩] – نزار قباني: الأعمال الشعرية الكاملة: ١/ ٦١٨

[٣٠] – نزار قباني: الأعمال الشعرية الكاملة: ١/ ٦٠٧

[٣١] – نزار قباني: الأعمال الشعرية الكاملة: ١/ ٧٥٠

[٣٢] – نزار قباني: الأعمال الشعرية الكاملة: ٢/ ١٥

[٣٣] – نزار قباني: الأعمال الشعرية الكاملة: ٢/ ٢٦١

[٣٤] – ينظر : اسلوبية السؤال ،رؤية في التنظير البلاغي ، د. عيد بلبع ،دار الوفاء، القاهرة، الطبعة الاولى ،١٩٩٩ : ٧٦

[٣٥] – نزار قباني: الأعمال الشعرية الكاملة: ٢/ ٩٤

[٣٦] – نزار قباني: الأعمال الشعرية الكاملة: ١/ ٦١١

[٣٧] – نزار قباني: الأعمال الشعرية الكاملة: ١/ ٦١٣

[٣٨] – نزار قباني: الأعمال الشعرية الكاملة: ١/ ٦٠٠

[٣٩] – نزار قباني: الأعمال الشعرية الكاملة: ١/ ٦٠٢

[٤٠] – نزار قباني: المجموعة الشعرية الكاملة: ١/ ٤١٧

المصادر والمراجع –

١– الأدب الاسلامي بين النظرية والتطبيق، د. صابر عبد الدايم، دار الشروق، الطبعة الاولى، ٢٠٠٢

٢– أسرار القصائد الممنوعة لشاعر الحب والحرية نزار قباني قصائد خلف الأسوار، محمد رضوان، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٤.

٣– اسلوبية السؤال، رؤية في التنظير البلاغي، د. عيد بلبع، دار الوفاء، القاهرة، الطبعة الاولى ،١٩٩٩

٤– الأعمال السياسية الكاملة، نزار قباني، منشورات نزار قبّاني، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٨٣.

٥- الأعمال الشعرية الكاملة ، نزار قباني، منشورات نزار قباني، بيروت، لبنان
٦- الاعمال الشعرية والنثرية الكاملة، نزار قباني منشورات مهديس، الطبعة الأولى
٧- - الاغاني علي بن الحسين بن محمد القرشي الاصفهاني (٣٥٦)، تحقيق إبراهيم الأبياري، طبعة دار الشعب،١٩٦٩.
٨- الانحراف العقدي في أدب الحداثة وفكرها دراسة نقدية شرعية، د. سعيد بن ناصر الغامدي، دار الاندلس الخضراء، جدة ، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣ .
٩- بلاغة الخطاب وعلم النص، صلاح فضل عالم المعرفة الكويت،١٩٩٢ .
١٠- البلاغة والاسلوبية ،محمد عبد المطلب، الهيئة المصرية العامة لكتاب ١٩٨٤
١١- بنية القصيدة العربية حتى نهاية العصر الأموي، د. وهب رومية، دار سعد الدين، دمشق،١٩٩٧ .
١٢- التناص القرآني في شعر نزار قباني، د. مصطفى صالح علي، كلية الآداب-جامعة الأنبار، مجلة جامعة تكريت للعلوم، المجلد: ١٩، العدد: ٧، تموز ٢٠١٢.
١٣- العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ابي علي الحسن بن رشيق، تحقيق د.عبدالحميد الهنداوي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ٢٠٠٧.
١٤- - فتافيت شاعر وقائع معركة مع نزار قباني، جهاد فاضل، دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٩٨٩ .
١٥- في نظريّة الأدب، د. شكري عزيز ماضي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ،الطبعة الأولى ،٢٠٠٥ .
١٦- النص وتفاعل المتلقي في الخطاب الأدبي عند المعري، حميد سمير، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٥.